

الفصل الخامس عشر:

الحالفة

عن الأمنيات

والمنفى

والحقول الذهبية

تمايلت الحقول الشاسعة التي التمعت تحت نور الشمس الدافئة بفعل نسيمات الهواء التي حركتها برقة.. فبدت وكأنها خيوط ذهبية تنثني لتلمس الأرض بخفة ثم ترتفع منتصبّة من جديد.. وفي الطريق الحجري الذي يعبر بين الحقول سارت فتاتان تحملان سلالاً من الفاكهة في طريقهن لمنازلهن وإحداهن تقول وهي تعدل من وضع الوشاح الذي يمنع شعرها من البعثرة بفعل الهواء "لقد حان الوقت مرة أخرى هذا العام.. يبدو أن أوان حصاد الحقول قد أزف سريعاً وسينشغل الجميع بهذا العمل.."

علقت الفتاة الأخرى وهي تتأمل الحقول مبتسمة "رغم التعب الذي نلاقيه، إلا أنني أحب رائحة هذه الحقول.. وما إن ينتهي الحصاد حتى أفقد مرأى هذه الأمواج الذهبية اللامعة.."

كاد وشاح الفتاة الأولى يطير بفعل الهواء الذي ازدادت قوته شيئاً ما، مما جعلها تسقط سلتها في محاولتها الإمساك به، وتناثرت فاكهتها تسابق بعضها البعض في الطريق المنحدر، والفتاة تصيح "لا.. فاكهتي..". ضحكت الفتاة الأخرى وهي تساعد في التقاط ما تطاله منها.. بينما تدمرت الأولى وهي تركض خلف فاكهتها المتدحرجة، حتى توقفت عند قدمين اعترضتاها وسط الطريق.. فرفعت الفتاة رأسها لتطالع فتاة أكبر منها عمراً، ترتدي ثوباً أبيض بسيطاً وقبعة تظل وجهها من الشمس، فيما ينسدل شعرها الفاحم الطويل خلف ظهرها في تباين ملفت مع ثوبها والهواء يلعب خصلاته بنعومة.. لم تتفوه الفتاة الأولى بكلمة وهي تقف بعد أن جمعت فاكهتها.. فلاحظت في يد الفتاة الغريبة بعضاً من الفاكهة، مدت يدها بهم إليها وابتسامة صغيرة ترتسم على شفيتها، فتناولت الفتاة ذات الوشاح الفاكهة وهي تبادلها ابتسامة مترددة.. كانت الفتاة الأخرى قد وصلت قرب رفيقتها، وبعد أن جمعتا ما سقط منهما تطلعتا إلى الغريبة التي أكملت سيرها صاعدة الطريق الحجري بصمت وعبقها يملأ أنفيهما.. فهمست الأولى "أهذه هي؟" أومأت الأخرى موافقة وهي تضيف بهمس "أجل.. رأيته عدة مرات عندما كنت أذهب برفقة أُمي لمساعدتها في منزلها.."

غمغمت الأولى "حقاً إن فتيات العاصمة يختلفن اختلافاً كلياً عنا.. هيئتها وجمالها واهتمامها بمظهرها.. كل هذا يجذب الأنظار ولا شك.. بم تتادونها؟ هل تجبركم على مناداتها بمولاتي؟" قالت الفتاة الأخرى مبتسمة وهما تكملان طريقهما "بل نناديها بي ناريا.. فقط بي ناريا" أما بي ناريا، فقد سارت صاعدة الطريق المار بين الحقول والمؤدي لهضبة صغيرة مشرفة على المحيط الشاسع خلفها.. وبعد سير قصير، كانت تقف على الهضبة تتأمل المحيط بمياهه شديدة الزرقة وهي تضرب الصخور تحتها بصوت مدوّ.. اشتدت الرياح قليلاً مبعثرة شعرها، فسارعت للمّ من جديد وإرساله على صدرها وهي تتخلل خصلاته الناعمة بأصابعها كما اعتادت دائماً.. تنهدت وهي سارحة في الأمواج المتتالية لا تشعر بنفسها وفكرها يدور حول كل ما مرت به منذ الليلة التي غادرت فيها يناساً الأحب إلى قلبها.. ورغم اعتراضها وإضرابها فور وصولها إلى بيران، إلا أن الجو الهادي والطبيعة المذهلة التي تراها تتبدل كل يوم بشكل خيالي، قد جعلها تهدأ نفساً وهي تفكر عميقاً في حياتها..

والآن، وقد مرت سنة كاملة منذ غادرت العاصمة، فما زالت تتساءل.. أقدم ظلمت نفسها بكل ما فعلته في السابق؟ أم هي تظلمها باستسلامها الحالي وبرضاها عن الوضع الذي هي فيه؟.. كانت قليلاً ما تتحرى أخبار المملكة ويناساً، وقليلاً ما تندمج مع السكان المحليين في أي حوار أو مشاركة.. معتزلة بصمتها وأفكارها وكأنها تكفر عن كل ما فعلته، بحق نفسها وبحق كل من تأذى بسببها..

تنفست بعمق مستشعرة ملوحة البحر ورائحته النفاذة.. لطالما أحببت هذا المكان.. شعرت أنه ملكٌ لها، ومخبأً لأحزانها وأحلامها.. مادامت قادرة على الوصول إلى هذه البقعة المتطرفة وقضاء ساعات في سكينه وهدوء، فهي تعود لمنزلها راضية وقد تخففت قليلاً من حمل قلبها.. من غيره يسمع شكواها عما فقدته؟ عن حبها الذي خسرت به أنانيته؟ عن حلمها الذي خسرت به كبريائها؟ وعن رجلها الذي خسرت به بتعنتها ورفضها لكل ما قدمه لها؟.. لكن هل يمكنها أن تعيد الماضي؟ هل تستطيع إعادة تلك اللحظة التي اختارت فيها العرش مفضلة إياه على قلبه الذي قدمه لها؟ لو يعود الزمن لغيرت اختيارها بالتأكيد.. فما عاد العرش يعني لها شيئاً.. ولو كسبت العرش تلك الليلة وخسرت قلبه لكانت تلك خسارة لا يمكن تعويضها أبداً..

تنهدت من جديد وهي تحاول تذكر ملامحه، صوته، أو أي شيء يخصه.. حتى اسمه، كانت تردده في كل لحظة من كل ساعة في أيامها.. وكأنها تخشى أن يضيع منها كما ضاع كل شيء آخر.. همست بصوت واضح وهي تتأمل الأمواج المتدافعة "هارولان.. أين أنت؟ هل نسيته حقاً؟ هل تخليت عني حقاً؟ ألا تشفق لرؤيتي حقاً؟" غلبت صوتها رجفة خفيفة، فصمتت مغمضة عينيها وهي تستمع لصوت الأمواج الذي شيئاً ما يذكرها به.. لا تعلم لماذا، لكن كلما نظرت إلى البحر، بهدوءه، بثورته، باتساعه، بسطوته، بكل شيء فيه، تذكرت لا إرادياً هارولان.. ورغم أنها لم تنسه لحظة من حياتها، إلا أن حضوره يزداد في هذا المكان.. وكأنه مكان خاص بها لتلتقي به وتشعر به، رغم اتساع المسافات بينهما..

سمعت أصواتاً تداخلت مع صوت الأمواج مما أشعرها بشيء من الضيق لهذا الإزعاج، وإن لم تلتفت خلفها وهي تسمع صوت رجل من المزارعين يقول لآخر "أؤكد لك أن هذا الخبر صحيح.. لقد تناقلته وكالات الأنباء جميعها، وإن لم يعلن رسمياً بعد"

قال الآخر بحدة "لا أصدق هذا.. ما لم يعلن هذا في قناة البث الرئيسية ليناساً فلن يصدقه أحد"

قال الآخر "أخبرت أنه لم يعلن رسمياً بعد، ولا أعلم لماذا.. لكنه مؤكد.."

فقال الآخر بغير تصديق "لكن.. من كان يصدق؟ لا يمكن أن يتنازل الملك عن عرشه ويترك حياته الباذخة دون سبب.. لابد أنه أجبر على هذا.. أليس كذلك؟"

قال الأول متأسفاً "لا علم لي.. لكنها خسارة فادحة حقاً.. لقد أحببناه بالفعل.. وهو قد قدم لنا الكثير بشكل أدهش الجميع.."

وكرر وهو يبتعد مع رفيقه "إنها خسارة فادحة بالفعل.."

شعرت بي ناريا بازدياد وجيب قلبها وهي تفتح عينيها وتحاول استيعاب ما سمعته.. هل تنازل هارولان عن العرش؟ هل تخلى عنه حقاً بعد هذه المدة الطويلة؟ لكن لماذا؟ أيعقل.....

حاولت إسكات أفكارها وهي تعض على شفتها مغالطة نفسها.. لم يكن الأمل لينفعها الآن.. وهي بعد مدة طويلة قد وُطئت نفسها على تقبل واقعها لكي لا تخسر أكثر مما خسرت، والتحلي ببعض الأمل الآن قد يزيد من إحساسها بخسارتها إن لم يتحقق ما أملت به..

استدارت وهي تلغي جميع الأفكار من عقلها وسلكت طريقها نازلة من الهضبة قبل أن تغرب الشمس ويقفّر المكان تماماً من المارين.. وقد اشتدت النسمات وازدادت برودة متغلغلة في ملابسها ومبعثرة شعرها.. ومن بين الهدوء المخيم على المكان سمعت بي ناريا صوتاً بدا كصدى لخطواتها يحمله الهواء من خلفها، ثم سمعت صوتاً كسر الصمت حولها وهو يقول "نارياسا..؟"

تجمدت بي ناريا ورجفة تعترئها دون أن تجرؤ على الاستدارة.. للحظة غالطت نفسها وشعرت أنها توهمت ما سمعته لكثرة ما فكرت فيه.. لكن الصوت عاد بنبرة أعلى "نارياسا.. أهذه أنت؟" عادت لها الرجفة أشد من السابق وهي تتعرف الصوت الذي لم تنسه يوماً.. ثم استدارت وهي تزيج خصلات شعرها التي تطايرت أمام وجهها.. وهناك، أعلى الهضبة، حيث كانت واقفة قبل قليل، رأت ذلك الشخص بقامته المديدة وهيئته التي لم تتغير رغم الشهور الطويلة التي لم تره فيها.. ظلت متجمدة في مكانها كما تجمد هو ونظراتها تلتقي بعينيهِ السوداوين التي حملت مئات التعبيرات لم تستطع إزاءها أن تمنع قلبها من اضطرابه وخفقاته المتزايدة.. ورغم ذلك، شعرت بأنها تكتُم أنفاسها وهي تتطلع إليه بانتظار أي لمحة أو صوت يصدر عنه ليؤكد لها أن ما تراه ليس حلمًا من أحلامها التي لا تنتهي..

وأخيراً، بعد صمت طال وقال الكثير، سمعته يقول بصوت حانٍ فيه ارتجافة حاول تمالكها "لقد عدت إليك أخيراً.. يا زهرتي"

انتفضت بي ناريا وهي تدرك الموجودات حولها، وتدرك أن ما تراه واقع وليس حلمًا.. واقع قد حلمت به مرات ومرات لا تحصى طوال الشهور التي مضت.. عندها وجدت نفسها تهمس بصوت متهدج "هارولان...؟" رأت ابتسامة عذبة ترسم على شفتيه، فأطلقت نفسها وهي تجري نحوه تاركة خصلات شعرها تتطاير خلفها محاولة اللحاق بها بلهفة.. دون أن تعبأ بقبعتها التي طارت بفعل الهواء لتسقط على الأرض الحجرية بهدوء وكأنها تخشى كسر الصمت الذي قال الكثير.. الكثير..

~ النهاية ~
